قوة الحقائق في الشريعة الإسلامية وأثرها في حياة الناس

تأليف

الدكتور أحسن زقّور

أستاذ محاضر في الفقه الإسلامي وأصوله ومقاصد الشريعة

بكلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية -

جامعة وهران - الجزائر

منشورات دار الأديب

©جميع الحقوق محفوظة

منشورات دار الأديب

حي باهي اعمر الساليا وهران

الهاتف: 35 31 58 041

الإيداع القانوني: 597-2007

ردمك: 6-75-793-9961-978

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وبعد:

فإن الله تعالى قد خلق الإنسان ضعيفا أمام عدة قوى هامة في هذه الدنيا، وكثير من هذه القوى قد بنى عليها شريعته الإسلامية والدعوة إليها، بحيث لو أصابت هذه القوى الإنسان ما استطاع أن يقف أمامها أبدا، وما استطاع إلا أن يكون مسلما محسنا في إسلامه، ناشرا له أينما حل وارتحل، ولتحققت عندها غلبة الإسلام...، ولساد في العالم كله... ولعادت سيادة المسلمين التي ضاعت بعد أن سادت أكثر من ألف سنة، سار الإسلام فيها بالبشرية إلى أرقى حضارة عرفها الناس، سار بهم بخطى حثيثة وسريعة نحو الرقي بجلب المصالح إليهم ودفع المفاسد عنهم، ومن هذه القوى: نجد قوة الحقائق في الشريعة الإسلامية التي طريقها الحجة والبرهان.

فما مدى قوة هذه الحقيقة يا ترى؟ وما مصير الناس أمامها؟، وما مدى تأثيرها في حياقم سلبا وإيجابا؟.

هذا ما سوف أحاول تناوله في هذا الموضوع إن شاء الله تعالى، فأقول وبالله التوفيق:

ضعف الإنسان أمام قوة الحقائق:

وأعني بالحقائق جمع حقيقة، والحقيقة هي الشيء الثابت يقينا بلا شك، والحقيقة في العلوم هي الحد الأدنى من المعلومات الضابط لحكمها[1]، وهي مشتقة من الحق الذي هو ضد الباطل.

ومما لا شك فيه أنه كلما تبينت الحقيقة -وأي حقيقة- للإنسان بحججها السليمة الساطعة فإنه لا يجد أمامه بدا إلاّ أن

يتقبّلها ويذعن إليها رغم أنفه، حتى وإن عاندها ورفضها مبدئيا: فلا بد وأن يتقبلها ويسلم بها فيما بعد حتى وإن طال به الأمد، لأنه هكذا خلقه الله تعالى ضعيفا أمامها، تظل تطارده هذه الحقيقة بقوتها وبحجتها الساطعة من داخله ومن خارجه...، هذه القوة التي في الحجة تظل تطارده وتدفعه دفعا إلى الحقيقة حتى

[1] القاموس الجديد لعلي بن هادية وأصحابه، ص 286، ط / المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1991.

يذعن إليها ويسلم بها، بل ربما بقي الأيام والأشهر والسنوات في صراع مع نفسه ومع هذه القوة الداخلية، هو يحاول دفعها ورفضها وهي تحاول جذبه وأخذه إلى الحقيقة حتى يقرّ بها ويسلم لها بالقهر، قال الشاطبي في معرض كلامه عن عدم التكليف بالأوصاف الباطنية لأنها قاهرة للإنسان وليس بمقدوره الوقوف أمامها: "فإن الأوصاف القلبية لا قدرة للإنسان على إثباتها ولا على نفيها، أفلا ترى أن العلم وإن كان مطلوبا: فليس تحصيله بمقدور أصلا، فإن الطالب إذا توجه نحو مطلوب:

- إن كان من الضروريات –كالبديهيات- فهو حاصل، ولا يمكن الانصراف عنه

- وإن كان غير ضروري: لم يمكن تحصيله إلا بتقديم النظر، وهو المكتسب، دون نفس العلم، لأنه داخل عليه بعد النظر ضرورة، لأن النتيجة لازمة للمقدمتين، فتوجيه النظر فيه هو المكتسب، فيكون المطلوب وحده"[1]، والشاهد من النص: قوله إن هذا العلم سواء أكان ضروريا أم بعد نظر فإنه لا بد وأن يدخله وسوف يحصل له بالضرورة إذ ليس بمقدوره أن يدفعه، إذ العلم الضروري يدخل إلى إدراك الإنسان بقهر الضرورة، والعلم

[1]- الموافقات للشاطبي، ج2، ص 111، ط/ دار المعرفة بيروت لبنان.

المكتسب - وهو الحاصل بعد النظر -يدخل إلى إدراكه بقهر قوة الحقيقة التي فيه، وبضعف الإنسان خلقة.

ثم يؤكد هذا الأمر قائلا: " وأما العلم على أَثَرِ النظر: فالجميع متفقون على أنه غير داخل تحت الكسب بنفسه، وإذا حصل لم يمكن إزالته على حال" [1] إذ لا يكلف الإنسان بالعلم، وإنما يكلف بالبرهان على العلم وتوجيه النظر إليه، والحوم حوله، وإذا حصل العلم للإنسان: لم يمكنه دفعه بالجهل، لأن العلم والجهل يدخلان على الإنسان قهرا واضطرارا، ولهذا لم يعط الله تعالى عذرا للمؤمن إذا هو ارتد عن الإسلام، لأن دفع معرفة الله عنه ليس بمقدوره ولا بمقدور غيره، وإنما بمقدوره العناد بنطق الكفر حتى وإن خالف لسانُه قلبَه وعقلَه، فكل من أسلم واستقرت معرفة الله تعالى وصفاته في قلبه: لم يمكنه إبعاد تلك المعرفة أبدا، فلم يمكنه الكفر، فإن أظهر خلافها بلسانه: لم يعذر أبدا، إذ من قُيد وأسر بالإيمان الناتج عن معرفة: لم يمكنه كسر قيده ولا الفرار من سجنه، ولكن يمكنه أن ينافق ويخادع الناس بأنه قد تملّص من معرفة الله تعالى ومن الإيمان به، فكان له العقاب الشديد على خداعه ونفاقه هذين وليس على الإنفلات من معرفة

---

[1] - المصدر نفسه .

الله والإيمان به، فذلك غير حاصل منه أبدا، إذ كل من عرف الله تعالى حق المعرفة: أسلم نفسه له، وحسن إسلامه، وكان العبد المطيع لربه.

وإنّ أَثَرَ هذا القهر بالمعرفة للحقيقة لنجده أكثر وضوحا عند العلماء، إذ هم أكثر الناس إيمانا بالله وإقبالا عليه وخشية منه، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[1]، خاصة علماء الكون حيث ختم بقوله هذا قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ، وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾[2]، حيث فيه الحث على دراسة الظواهر الكونية من إنزال الماء من السماء مطرا وإخراج الثمرات به مختلفا ألوانها مع أنه نفس الماء، الماء واحد والثمار وألوانها مختلفة، وكذلك الجبال المختلفة وألوانها المختلفة، وكذا إختلاف ألوان الناس والدواب والأنعام،فكل من يصير عالما في مثل

---

[1]- فاطر، 28.

[2]- فاطر، 27-28.

الظواهر هذه من الكون: لا محالة يكون مؤمنا بالله تعالى خاشيا له لأنه خالقها ومصورها، وإذا كانت الحقيقة المنجلية لعلماء الكون تفعل بهم هذه الفعلة فإن علماء الشريعة من باب أولى أن تكون فاعلة بهم أكثر مما فعلت بعلماء الكون ... وأنا أستمع للشيخ محمد الغزالي –رحمة الله عليه– يوما في حصة دينية على التلفاز الجزائري يقول في معرض حديثه عن قوة المعرفة وقوة الحقيقة المتجلّاة وعلى رأسها حقيقة وجود الله تعالى وأنها قاهرة للإنسان آسرة له، يقول: " لقد حاولت أن اكفر مرات عديدة ولكني لم أستطع أبدا " وأنا أستمع وأصغي إليه إقشعرّ جلدي من هذا الكلام الخطير من شيخ جليل يعتبر النموذج الرائع في حسن الدعوة إلى الله... قلت: مابال الشيخ يقبل على هذا الكلام الخطير؟!... وأسئلة كثيرة أخذت تتزاحم في ذهني في تَوّيِ من السماع له...ولكني لما أدرت الكلام في ذهني وفكرت قليلا أدركت أن الشيخ – رحمة الله عليه– كان مقهورا على أمره في إيمانه بالله تعالى وجودا واتصافا بكل صفات الجلال والجمال، إذ قهرته هذه الحقيقة الكبرى وهي حقيقة وجود الله وكماله، فكان مطمئنا إلى أنه لن يستطيع الانفلات من معرفة الله، فلم يستطع

الإنفلات من الإيمان به وبما عرض عليه سبحانه من الإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره، إذ من آمن بالله آمن بالملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر والقدر خيره وشره من باب أوْلى، إذ الإيمان بوجود الله يسهل الإيمان بهم ويقتضيه، إذ أخبر الله به على لسان نبيه في حديث جبريل: " **قال أخبرني عن الإيمان؟ قال: "أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره** " [1] فلما كان الشيخ الجليل كذلك تحت هذا القهر العلمي بحقيقة وجود الله: لم يستطع أن ينافق أو يخادع الناس بأنه قد كفر فعلا بالله تعالى، إذ النفس المطمئنة لا تستطيع الكفر والجحود، ولما كان هذا الشيخ الجليل ما هو إلا بشر: كانت هذه الحقيقة متكررة على كلهم كلما تكررت معرفة الحقائق عليهم وذلك لعجزهم أمام الحقيقة الإيمانية ...فليس لهؤلاء جميعا بعد أسرهم وقهرهم بالحقيقة إلا الاستقامة مع الله تعالى إيمانا وطاعة...

[1]– أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان حديث 1 واللفظ له، وأخرجه البخاري في صحيحه كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي صلى عليه وسلم عن الإيمان والإسلام والإحسان حديث 50.

مكانة حقائق الشريعة الإسلامية:

وإن الحقائق التي في الشريعة الإسلامية وبراهينها لهي أساسية من حيث تكوينها ومن حيث الحفاظ بها عليها، حيث حفظ الله تعالى هذه الشريعة بمجموع حقائقها كما حفظ أساسها وهو القرآن الكريم بالحـــفظ في الصدور وغير الصدور، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[1]، فالحفظ للشريعة الإسلامية جعله الله تعالى بأمرين اثنين:

أ–حفظ القرآن الكريم في الصدور وغير الصدور: وهذا أمر هيّن وبسيط، إذ ما أسهل على المرء أن يتروي في زاوية لوقت يسير ليحفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب فيتحقق له ذلك وأعني بالزاوية زاوية حفظ القرآن الكريم أو الكُتَّابْ، وهذا الأمر في متناول عامة الناس، والحفظ في غير الصدور قد يكون أسهل من الحفظ في الصدور، إذ ما أسهل على المرء أن يكتب مصحفا ورقيا أو مصحفا إلكترونيا أو يصوره أو يجعله في أي وسيلة جديدة ناجمة عن تطور وسائل الإعلام كالأقراص المضغوطة واللينة وغيرها من الوسائل، كل هذه الأنواع جيدة لحفظ القرآن الكريم وستبقى في تطور وتنوع مستمرين مادامت الحضارة على الأرض في تطور

[1] -الحجر 9

مستمر إلى يوم القيامة، إذ الوسائل التكنولوجية هي من أحسن وسائل حفظ القرآن الكريم بعدما كانت الصدور هي الأحسن.

ب-حفظها بوضعها مبنية على حقائق قوية وبراهين وحجج متينة: إذ عليها تتكسر كل الطُّرّهات وكل الخرافات وكل الإغراضات وكل الغوايات وكل الإدعاءات والضلالات الباطلة، حيث تحدى الله تعالى بها المعاندين من المشركين، فقال: ﴿**تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾[1]، وقال: ﴿**أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ**﴾[2]، وقال: ﴿**أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾[3]، وقال: ﴿**وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ**﴾[4]، وقال: ﴿**كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ**﴾[5].

---

[1] – البقرة 111.

[2] – الأنبياء 24.

[3] – النمل64.

[4] - القصص 75

[5] - هود1

وهذا التحدي الشديد في هذه الآيات باق ومستمر إلى يوم القيامة، لأن القرآن الكريم معجزة مستمرة إلى يوم القيامة.

وقال تعالى في سورة الأنعام: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ، قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[1] ومعنى البالغة: القوية، الشديدة.

وقال في سورة القصص ردا على المشركين الذين رفضوا شريعة محمد ﷺ بعدما أقام عليهم الحق بالحجة والبرهان إذ قرر حالهم وأقام عليهم الحجة الدامغة، ولما رفضوها عنادا منهم بغير علم وصفهم بالضلال بل هم أضل مخلوقات الله بقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ، قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ، فَإِن لَّمْ

---

[1] - الأنعام 148-149

﴿يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[1] والضمير في (منهما) يعود على الإنجيل والتوراة.

وطمأن الذين آمنوا بأنه قد آتاهم الحق والصدق والحجة والبرهان فقال في سورة النساء: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾[2]، ومن أهدى ممن جاءه برهان من ربه؟، بل جعل مابين أيدهم من الحق دامغا لما بين أيدي الكفار مزهقا له فقال في سورة الأنبياء: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾[3] ، ثم تحدى الكفار بأنه لا إله لهم غيره فقال بعدها: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾[4] ، وقال

مطمئنا الذين آمنوا أن ما أنزل على نبيهم كاملا غير منقوص راض به لهم: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ

---

1 - القصص 48-50.

2- النساء، الآية 174.

3 - الأنبياء 18.

4 - الأنبياء 24.

نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا﴾[1]، والدين الكامل يجب أن يكون كاملا في حقائقه وفي حججه وبراهينه وفي كل شيء، وإلا لا يكون كاملا، وأيّ دين أفضل من الدين الكامل من عند الإله الكامل ياترى؟، وأي دين أقوى من الدين الكامل ياترى؟ وأيّ دين أهدى من الدين الكامل ياترى ؟و...

شمول قوة الحقيقة والبرهان في كل الشريعة الإسلامية:

وهذا الأمر- وهو قوة الحقيقة والحجة والبرهان- نجده شاملا في كل أصول الشريعة وفي كل فروعها، لأنه داخل في صميم الحفاظ عليها كما بينا سابقا، إلا أنها في القوة غير متساوية.

- فنجدها أقوى ما يكون في أمور العقيدة، لأن العقيدة هي الأصل الأول وهي الأساس الأعظم لكل شريعة، ومن مميزات هذه الحقائق وهذه الأدلة فيها: البساطة والسهولة، ليتقبلها كل عقل سليم، ولتكون في متناول كل عقول الناس عامتهم وخاصتهم، إذ وجّه الله تعالى أنظار عباده إلى التذكر والتفكر في الحقائق الكونية الماثلة في مخلوقاته لأنها طريق إلى معرفة وجود خالقها سبحانه، وهي أكبر وأقوى حقيقة على الإطلاق، ثم معرفة صفات جماله

---

[1] - المائدة 3

وجلاله سبحانه كقوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [1] وكقوله: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ، وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ، وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [2] وكقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ، وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ، وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [3] وكقوله: ﴿أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن

[1] - البقرة 164

[2] - الغاشية 17-20.

[3] - الأنبياء، 30-33.

﴿كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[1] ولآيات كثيرة أمثال هذه الآيات، كما صرفهم إلى قواعد عامة في الإيمان به وبصفاته كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[2] ، وكقوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[3]، والعقول تدرك بالخلقة والمشاهدة أن السماء والأرض لما لم تفسدا لزم عدم تعدد الآلهة، فلزمت وحدانيته تعالى، وقال يمنّ على الناس جميعا: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[4]، فذلكم الله ربكم، إذ هو الذي جعل الأرض قرارا والسماء بناء وصوركم في أحسن صورة، كما قد رزقكم من الطيبات، وإذا كان الله هكذا: فتبارك الله رب العالمين، الله الذي يعطي بلا حساب ويمنّ ويحسن إلى عباده بلا حساب و... ولقد وبّخ الذين كفروا ولا ينظرون إلى حال ضعفهم وأنهم في أضعف ضعف وهم أمواتا، ثم آتاهم قليلا من القوة إذ أحياهم، ثم

[1] - النمل،64.

[2] - الشورى 11.

[3] -الأنبياء 22 .

[4] - غافر، الآية 64.

يعيدهم في أضعف ضعف إذ يميتهم مرة ثانية قائلا: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[1].

وكل براهين حقائق العقيدة الإسلامية هي مثل هذه البراهين في البساطة مع القوة والرجحان، وإذا ما تمكنت العقول البشرية على مثل هذه البراهين أصبحت هذا هو ديدنها وهذا هو شأنها[2] ، ولهذا قال الأعرابي -مع بساطة عقله وعلمه- لما سئل عن الدليل على وجود الإله الخالق: "البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير، وجبال ووهاد وصحاري وسهول ألا تدل على الإله الخالق القدير؟! "أنظر لهذا البرهان البسيط ولقوته العجيبة على وجود أكبر حقيقة على الإطلاق، ألا وهي حقيقة وجود الإله الخالق القدير عزوجل.

ونعيب على علماء الكلام الذين صعّبوا السهل وأرادوا حمل الناس على طريقتهم في الكلام كما أعاب عليهم أبو حامد الغزالي قديما.

---

[1] - البقرة 28.

[2] - الموافقات للشاطبي 89/2.المصدر السابق.

- ثم تأتي في المرتبة الثانية حجج وبراهين أحكام العبادات من حيث القوة لأهميتها في تربية الناس، وتحسين سلوكاهم في حياهم عامة وخاصة، ولأن الأصل فيها التحريم، والعقول قاصرة عن إدراك أسرارها عامة، ولأنها المهمة الأولى للناس في حياهم إذ قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1]

- ثم تأتي في المرتبة الثالثة حجج وبراهين أحكام العادات والمعاملات وإن شئت سميتها أحكام المعاشات من حيث القوة لأنها أقل شأنا من العقائد والعبادات، إذ هي خادمة لها،قال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[2]، وماهذا التكليف باستعمار الأرض وبنائها بالحضارات وأرقى المعاشات إلا حتى يستطيع الإنسان أن يعبد الله تعالى بأحسن عبادة، لأن حسن المعاش يؤدي إلى حسن العبادة، ولأن الأصل في المعاشات الإباحة وعدم الحجر وليست كالعبادات، ولأن العقول قادرة على إدراك أسرارها عامة.

---

[1] - الذاريات 56.

[2] - هود 61.

- وأخيرا تأتي أحكام الوعظ والإرشاد ومكارم الأخلاق من حيث القوة، لأنها غالبا ما تحوم حول إثبات تحسين حياة الناس وتنميقها لتحسين عباداتهم لله تعالى.

فنخلص مما سبق إذن أن مكارم الأخلاق خادمة للمعاشات، وأن المعاشات خادمة للعبادات، وأن العبادات خادمة للعقائد، فمكارم الأخلاق حافظة لمكارم العيش، ومكارم العيش حافظة لمكارم العبادات، ومكارم العبادات حافظة لمكارم الاعتقادات.

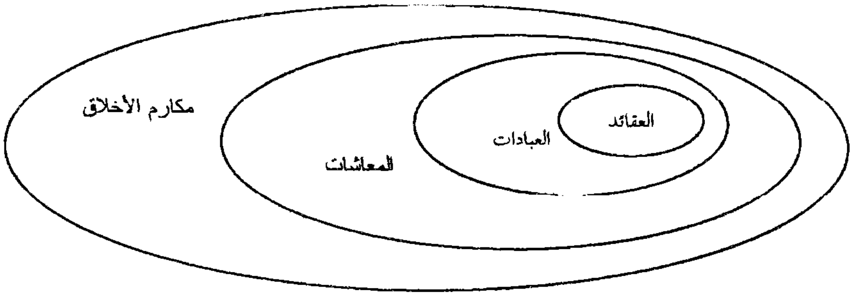

أهمية حفظ الشريعة الإسلامية بالحجج القوية الدامغة:

وهذا الأمر الأخير- وهو الحفظ بالحجج القوية المجلية للحقائق الأساسية في الشريعة الإسلامية- لهو أهم من الأمر الأول - وهو الحفظ في الصدور وغيرها من وسائل الحفظ التكنولوجية- وهو ليس في متناول كل الناس كالأمر الأول، بل لا يستطيع القيام به إلا أصحاب العقول الراجحة الوقادة من العلماء المتخصصين في الشريعة الإسلامية، بل هم المجتهدون الذين بلغوا الذروة في مرتبة الاجتهاد، فهم خاصة الخاصة الذين أعطاهم الله هذه القوة الإستكشافية لهذه الحقائق التي في الشريعة الإسلامية بحججها السليمة الساطعة، وهذه هي **المرحلة الأولى في عملية الاجتهاد**، وأعني به البحث عن الحقائق بالحجج الدامغة وهي أهم مرحلة في حفظ الشريعة الإسلامية، وهذا الإجتهاد هو عبء كبير تئن به الجبال الراسيات لو حُمّلت به، وهو لازم على الأمة الإسلامية في كل عصر وفي كل مصر، إذ عليها إعدادِ مثل هؤلاء المجتهدين الأفذاذ في كل عصر من عصورها وفي كل مصر من امصارها، لأن الناس بحاجة إلى هذا الإجتهاد دائما، وذلك لتجدد تبدعاتهم الحياتية، إذ كل بدعة حياتية محتاجة إلى اجتهاد من المجتهدين لتعيين حكمها الشرعي، هذا من جهة، ومن جهة أخرى: فلأن أعداء

الإسلام لا ينامون في كل عصر وفي كل مصر، وكذا المغرضين والمشعوذين، إذ هم في شغل شاغل بمحاربة الإسلام والمسلمين بشتى الوسائل، وهذا ما يجعل باب الإجتهاد في الإسلام واجب الإفتتاح في كل عصر وفي كل مصر، لأن هذه الأبواب السابق ذكرها مفتوحة دائما، أبواب الأعداء والمغرضين والطاعنين في الشريعة الإسلامية، ولا نقول بأن ما اجتهد فيه السابقون من أسلافنا كافيا لرد أفعال هؤلاء ضد الإسلام والمسلمين عبر العصور، لأن المتجدد دائما يغلب المتجمد الخامل، ومن غير الصواب جعل الشريعة المرنة جامدة لا تستجيب لأي إشكال ولأي سؤال، والدليل على ذلك هو جعل النصوص الشرعية ظنية الدلالة في مجملها، وأن القطعي الدلالة قليل جدا فيها، ناهيك عن ظني الثبوت، وهذا ما جعل باب الإجتهاد مفتوحا من عهد الخلفاء الراشدين إلى يومنا هذا، وسيبقى مفتوحا إلى يوم القيامة، ولا أدل على ذلك من سكوت الشارع تبارك وتعالى عن الإجتهاد في أحكام المعاملات والمعاشات، فقد بقيت على أصلها من قبولها التجديد: إذ لم يقل صلى الله عليه وسلم عيشوا كما رأيتموني أعيش، فنبدّع في معاشنا كما يحلوا لنا بقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ

يَتَفَكَّرُونَ﴾[1]، وبقوله تعالى ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾[2]: فإن تجديد التشريعات والإجتهاد فيها إذن لا يشمل إلا مجالات أحكام المعاشات، أما أحكام العبادات فإنها ليست قابلة للتجديد، إذ أصل العبادات أنها حرام إلاّ ما دلّ الدليل على إباحته، ودل الدليل على طريقة ممارسته والقيام به، بخلاف المعاشات فإن الأصل فيها الإباحة إلا ما دل الدليل على الحرمة كما رأينا من هذه الأدلة، فجزئيات المعاش لا تحتاج إلى دليل في كل جزئية ابتداء، أي أن كل جزئية منها نستصحب حكم الإباحة فيها إلى حين ورود الدليل على حرمتها، لقوله ﷺ "**إن الله عز وجل يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها**"[3]، ولا يجدد هذا المجدد لها دينها إلا لما احتاجت إلى ذلك التجديد، وقد حدد الله تعالى أقصى مدة للتجديد السابق بمائة سنة.

---

[1] – الجاثية13

[2]- الأعراف 32

[3] - سنن ابي داود 4291، كتاب الملاحم، باب ما يذكر في قرن المائة، قال أبوا داود: (رواه عبد الرحمن ابن شريخ الاسكندراني، لم يجز به شراحيل) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة حديث 599، وخرجه الطبراني في الأوسط عنه أيضا بسند رجاله ثقاة، وأخرجه الحاكم من حديث ابن وهب وصححه وقد اعتمده الأئمة.

إذن كل تشريع لابد من تجديده على رأس كل مائة سنة، ومجال التجديد هو المعاشات دون العبادات كما رأينا سابقا، ولأننا لو قلنا بأن التجديد هذا يشمل العبادات لكانت الأمة الإسلامية تخرج عن عبادتها والتي هي ثابتة لا تتبدل ولا تتغير لا بالزيادة ولا بالنقصان على رأس كل مائة سنة: فتكون عندها أمة فاسقة على رأس كل مائة سنة، أي أنها دائمة التكرار للتفسق والخروج عن الجادة فهي تصير أمة مجرمة عاصية لربها تستحق اللوم والذم و العقاب ولا تستحق الثناء والمدح والثواب، لكن الله تعالى قد مدحها بقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[1]، ولا يمدح الله تعالى أحدا ولا أمة إلا إذا كان راضيا عنه تمام الرضى و راضيا عنها تمام الرضى، ولا يكون راضيا عنه إلا إذا كان مطيعا له، ولا يكون راضيا عنها إلا إذا كانت مطيعة له، فلما مدح الله تعالى أمة الإسلام ولم يحدد لها مجالا لهذا المدح: علمنا أن هذا المدح مستمر إلى يوم القيامة، فالله تعالى راض عن هذه الأمة إلى يوم القيامة، ومن هنا استلزم حمل حديث "إن الله عز وجل يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها" على تجديد دين الأمة الإسلامية في معاشها فقط، أي في أحكام معاشاتها القابلة للتحول

---

[1] - آل عمران 110.

والتغير، إذ الأصل في المعاشات التغير والتجدد، ولما كان كل جديد في المعاش يحتاج إلى حكم شرعي فإن المجدد هذا ليس له من مهمة إلا الاجتهاد في أحكام هذه المعاشات الجديدة، ولما كانت العبادات لا تتجدد: فلا يجد هذا المجدد ما يجتهد فيه لاستصدار حكمه، ولما أخبر الله تعالى على لسان نبيه أنه يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد للأمة دينها علمنا حاجة الأمة الإسلامية إلى هذا التجديد على رأس كل مائة سنة، وهذا القدر (100 سنة) هو أقصى فترة يمكن أن يستمر عليها أي تشريع إسلامي بدون تجديد جذري، وما بعدها سيصير هذا التشريع للمعاشات غير صالح لصيانة مصالح الأمة ودفع مفاسدها، لأن مجال المعاشات يكون عندها قد تغير تغيرا جذريا و لم يبق من القديم شيء، فلم يبق من الأحكام القديمة إلا ما يبقى مستصحبا من المعاشات كأحكام البيع والإجارة مثلا، وهذه المعاشات هي الحد الأدنى المشترك بين سائر البشر في غالب الأزمنة والأمكنة، فأحكامها تكون هي الحد الأدنى من الأحكام الثابتة التي لا تتغير في المعاشات، وهذا ما يُفنّد قول من يزعم اليوم وكان يزعم قديما أن باب الإجتهاد في الإسلام قد أغلق منذ زمن بعيد، إذ كيف يغلق والله يبعث لهذه الأمة من يجتهد لها في أحكام معاشاتها المستجدة على رأس كل مائة سنة؟

وهاهي قد مرت رؤوس مئات السنين، وفي كل رأس كان وما يزال الله يبعث لهذه الأمة من يجتهد لها، ويجدد لها أحكام دينها في المعاش، وإذا كان هذا التجديد بالإجتهاد الأهم يحصل على رأس كل مائة سنة، فإن التجديد بالإجتهاد الهام الأقل أهمية من الأول يحصل فيما بين كل رأسين لمائتين من السنيين،في كل عدد قليل من السنين، بل في كل سنة، بل في كل يوم وليلة وساعة ودقيقة، لأن مستجدات الحياة حاصلة في كل دقيقة وساعة ويوم وليلة وسنة و...

عرض الحقائق الشرعية على الناس:

وهذه هي المرحلة الثانية في عملية حفظ الشريعة الإسلامية، فهي عرض لهذه الحقائق بالحجج التي استنبطها المجتهدون على الناس أصحاب العقول الوقّادة من العلماء ثم على الناس جميعا، فلا يكون لهؤلاء العلماء خاصة المعروضة عليهم بُدًّا إلاّ أن يقبلوا بها ويذعنوا لها إذا كانت حججها سليمة، فلا يستطيعون رفضها وإنكارها للقوة الداخلية الدافعة من أنفسهم، وللقوة الجاذبة لها والكامنة فيها كما أسلفنا في مقدمة هذا الكلام، مثلما لم يستطيعوا ولن يستطيعوا إنكار ورفض الحقائق الطبيعية والرياضية المتجلية بالحجج الساطعة في هذه العلوم، بل لقد وجدنا من العلماء من

يضحي بنفسه ولا يستطيع إنكار هذه الحقائق العلمية مثل العالم "غاليليو" الإيطالي الأصل وقصته مع الكنيسة مشهورة في التاريخ عندما طَلبت منه أن ينكر حقيقة دوران الكرة الأرضية، ومُثّل أمام محكمة التفتيش الكنسية، وكادوا ينزلون عليه الحكم الأقسى وهو الإعدام! نصحه بعض زملائه بالرجوع عن حقيقة دوران الأرض إلى ثبوتها وعدم دوارنها كما يزعم أمامهم في نظرهم والتصريح أمام المحكمة بذلك... إذ وقف وهو يتردد في قلق كبير يريد أن ينكر هذه الحقيقة المتجلية له بالبرهان الساطع... وجدناه يصارع نفسه ويصارع عقله ويصارع المحكمة الجائرة، فلم يتمالك إلا وقد صاح بأعلى صوته قائلا "ولكنها تدور !! "... فما الذي جعل هذا العالم الجليل لا يستطيع إنكار هذه الحقيقة مع رؤيته لحكم الإعدام عليه سيقرأ في الحين من طرف قاضي المحكمة إذا لم يستجب لنزواتها الجاهلة ؟ لا نجد له مخرجا وإجابة إلا قوة هذه الحقيقة وتأثيرها في نفسه.

وإذا كانت هذه الحقائق الطبيعية أو الرياضية بحججها التي بناها العقل البشري بدون مساعدة من الله تعالى بكتاب من السماء إلا نادرا مع ضعفه وقصوره في البناء والتركيب لها تفعل في الإنسان هذه الفعلة، فما بالك في الحقائق والبراهين والحجج

لإلهية؟!! فإن العقول البشرية إذا ما اكتشفتها واقتنعت بها فلن تحيد عنها ولو على جثث أصحابها لأن العقل الذي لا يَسلم بالقوة لأدنى لا يَسْلَمُ بالقوة الأعلى من باب أوْلى، والعقل الضعيف أمام لحجة الأقل قوة هو أضعف أمام الحجة الأكبر قوة، ولنا العبرة لكاملة في سحرة فرعون إذ قطّعت أيديهم وأرجلهم من خلاف وصلّبوا على جذوع النخل ولم يستطيعوا إنكار حقيقة وجود الله تعالى وما أرسل موسى به إلى فرعون،لمّا تجلّت لهم تلك الحقيقة لأقوى، حقيقة وجود الله واتصافه بكل صفات الجلال والجمال، قال تعالى: ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ، قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ، قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ، قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ، وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ، فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ، فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ، وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ، قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ، رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ، قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ، لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ

خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين، قالوا إنا إلى ربنا منقلبون، وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين﴾[1]، وفي أصحاب الأخدود الذين آمنوا بالله وأطاعوه قُرِمُوا في النار واحدًا بعد واحد لمّا طُلبَ منهم الكفر فأبوا،ولم يستطيعوا إنكار حقيقة وجود الله تعالى واتصافه بكل صفات الجلال والجمال، قال تعالى: **﴿قتل أصحاب الأخدود، النار ذات الوقود، إذ هم عليها قعود، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود، وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد، الذي له ملك السماوات والأرض والله على كل شيء شهيد﴾**[2]وفي ياسر وزوجته، إذ قتّلا ولم يرضيا النطق بالكفر والعودة إليه بعد الإيمان فطمأنهم رسول الله ﷺ قائلا: " **صبرا آل ياسر فإن موعدكم الجنة**" ففي كل هؤلاء الأدلة القوية على قوة تملّك الحقيقة لعقول الناس وقلوبهم، إذ ما استطاع كل هؤلاء التملّص من الحقيقة المالكة لعقولهم والرجوع عنها إلى الباطل، فعذّبوا وقتّلوا وصلّبوا ولم يعودوا عنها... ولم يعودوا عنها إلا لأنها كانت أقوى منهم ومن الذين عذّبوهم وقتّلوهم حتى، ولا يكون مثل هذا الأمر أو

---

[1] - الأعراف، 113-126.

[2] - البروج، الآية 4-9.

مثل هذه النتيجة في المسلمين والذين يُدْعَوْنَ إلى الإسلام إلا إذا عُرضت عليهم حقائق الشريعة الإسلامية بحججها الساطعة وفهمت من طرفهم فهما سليما لا غبش فيها...

حسن عرض الحقائق الشرعية على الناس:

ومن هنا ينشأ عبء آخر على علماء الشريعة الإسلامية، وهو وجوب عرض هذه الحقائق بحججها عرضا سليما بسيطا على الناس، يوصل الحقيقة إلى أذهانهم...

ولا يستطيع أن يقوم بهذه المهمة إلا علماء متخصصون في حسن الدعوة إلى الله تعالى، أو في فن الدعوة إلى الله تعالى، إذ غير المتخصص في هذه الدعوة عليه أن يحترم نفسه وأن يخرس ولا يتكلم في الدعوة إلى الله شيئا لأنه بدل أن يجذب الناس إلى الإسلام: يصدهم عنه —والعياذ بالله—، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾[1]

فالقضية الأولى إذن هي خلق الإنسان ضعيفا أمام قوة الحقيقة التي طريقها الحجة والبرهان السليم.

[1] - الممتحنة 5.

والقضية الثانية هي وجوب بناء الشريعة الإسلامية على حقائق وبراهين لها دافعة لا يستطيع الإنسان الوقوف أمامها لتولي الله تعالى حفظ شريعته الإسلامية بها من أصحاب العقول الوقادة من المغرضين والمبطلين والذين يعملون على إبطال شريعته على مرّ العصور والأزمان ببراهين قوية ما استطاعت إلى ذلك سبيلا، أو إبطال حقائقها بإبطال براهينها[1].

عدم إمكان إبطال الشريعة الإسلامية بإبطال حقائقها:

لو سلمنا أن حقائق وبراهين الشريعة الإسلامية في درجة من الضعف لاستلزم اكتشاف بعض الحقائق فيها مزيفة وأنها مبنية على بعض البراهين المهلهلة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى لاستطاع الناس المغرضون البرهنة على إبطالها ببراهين أقوى من براهينها، ولذهبت عندها الشريعة الإسلامية أدراج الرياح، فلم يستطع عندها الله تعالى أن يحفظ شريعته، وهذا محال لاستحالة عجز الله تعالى، وعدم عجزه ثابت بالمشاهدة لهذا الكون الفسيح وهذه المخلوقات العجيبة واللامتناهية، فحفظ الشريعة الإسلامية ثابت بالمشاهدة كذلك، إذن اشتمال الشريعة الإسلامية على

[1] —الموفقات للشاطبي 2/ (111-112)، المصدر السابق.

حقائق وبراهين ضعيفة باطل، فلم يبق إلا نقيض هذا فقط، وهو بناء الشريعة الإسلامية على حقائق وحجج قوية حفظها الله تعالى بها إلى يوم القيامة، وإذا ما ظهر أي ضعف في أي حجة من حججها بداية: فإنه لا بد وأنّ فهمها من طرف الناس على هذا الضعف هو الغير سليم، ولا بد من إظهار قوة هذه الحجة مرة أخرى على مر العصور على يد علماء أجلاّء أصحاب عقول راجحة... فالعيب هو في سوء فهم الناس لها وفي سوء عرضهم لها وليس فيها، فهي حجة أقوى دائما أمام حجج المخلوقات لأنها من عند الله القوي العظيم.

وهنا نسجل على حجة الإسلام أبي حامد الغزالي في كتابه المنقذ من الضلال لما حرّم على الناس دراسة الرياضيات وعلوم الطبيعة لقوة حججها وخوفه على الناس من أن يفتتنوا بها وبقوتها: فيبهرون بها فيظنون أنها هي الحق المطلق فقط وأن الشريعة الإسلامية باطلة لا محالة[1] ، وكأني به يظن أن قوة حجج هذه العلوم أقوى من قوة حجج الشريعة الإسلامية !!!، وهذا محال كما بيّنا سابقا، ولأن حجج القوي أقوى من حجج الضعيف، وحجج الخالق هي أقوى من حجج المخلوق يقينا، وإلا صار

[1] – المنقذ من الضلال لأبي حامد الغزالي ص 49-54، ط/ المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984.

الخالق القوي أضعف من المخلوق الضعيف، فهو أضعف من الضعيف وهذا محال على الله الخالق القوي عزوجل، وكان الأجدر بالإمام الكبير أن يرشد الناس إلى دراستها والتوغل فيها أكثر فأكثر إلى جانب دراسة الشريعة الإسلامية وحججها والتوغل فيها أكثر فأكثر، ثم المقارنة بين هذه وتلك حتى يحصل للناس اليقين بأن الأقوى حجة هو الله تعالى مصداقا لقوله: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾[1] إذ يدركون عندها جيدا مدى قوة حجة الشريعة الإسلامية ومدى ضعف حجة أي علم وأي عالم أمامها مهما أوتيت حجج أي علم من قوة، ومهما أوتي علماء تلك العلوم من قوة إكتشاف لها، وحسن عرض لها على الآخرين.

وأعني بعلوم الطبيعة: علوم الرياضيات والفيزياء والكيمياء وعلم الفلك، والعلوم الطبيعية وعلوم الحياة كما صرح بها أبو حامد الغزالي في كتابه هذا "المنقذ من الضلال".

عرض وعبرة:

وإذا كان الإنسان ضعيفا أمام الحجج القوية، ولا يستطيع إنكارها مهما كان مصدرها، وإذا كانت حجج الشريعة الإسلامية هي أقـــوى الحجج بقوة الله تعالى: فلماذا لا يعـــرض

---

[1] – الأنعام، 149.

المسلمون حجج شريعتهم على الناس كما يعرض علماء الرياضيات وعلوم الطبيعة حججهم فتكون النتيجة هي هي: الإذعان والخضوع والقبول، ومنه الإذعان والخضوع والقبول لشريعة الإسلام التي تفرق بين الحجج الواهية والحجج القوية، والتي تفوق في القوة قوة الرياضيات وقوة العلوم الأخرى في حقائقها وفي حججها، فالمذعن لحجج هذه العلوم لا إراديا هو من باب أوْلى أن يذعن لحجج الشريعة الإسلامية لا إراديا، لأن هذه أقوى حجة من تلك.

نظرة وآمال:

- ويوم يستطيع علماء الشريعة الإسلامية فَهْمَ هذه الحقائق السالبة للعقول والقلوب حُبًّا، والمعجزة لها قوة، التي أودعها الله تعالى فيها ببراهينها الساطعة القوية، ثم يحسنون عرضها على الناس ساطعة لا غبار عليها، جميلة جمال الشريعة الإسلامية الأخّاذة للقلوب، وبعاطفة الشريعة الإسلامية الفياضة التي تدمي العيون رهافة وإحساسا: فسوف لن نجد في هذه الدنيا أحدا يستطيع رفضها ولا رفض شريعة الإسلام، وإن وجد: فهو معاند شاذ لا يقاس عليه، ولا يلبث مدة من الزمن إلا ويعود إلى الصواب والقبول كما فعلت قريش رغم عنادها وجبروتها، لما تجلت لها

حقائق الشريعة الإسلامية بحسن عرضها عليها من طرف النبي صلى الله عليه وسلم: إذ دخلوا في دين الله أفواجا وصاروا صناديد الإسلام بعد حين، وحملوا راياته ترفرف على سائر الأمم المجاورة، وكانت النتيجة أن ساد الإسلام العَالَمَ في أقل من نصف قرن من الزمن.

أهمية القوانين الشرعية في حياة الناس من القوانين الطبيعية:

إذا سألنا أنفسنا: أي القوانين أهم في حياة الناس أهي القوانين الشرعية أم القوانين الطبيعية؟ لوجدنا الجواب بالخلف:

1- إذا أعطى الله تعالى اهتماما بأمر ما، فهو دليل على أهمية ذلك الأمر

2- لقد اهتم الله تعالى بالقوانين الشرعية في سائرالرسائل السموية على سائر العصور إلى آخر رسالة وهي رسالة الإسلام، وسكت عن قوانين الطبيعة إلاّ نادرا، تاركا أمرها لعباده بالخلقة.

ومن هنا يتبين لنا أن الأهم في حياة الناس هي القوانين الشرعية، فالمرتبة الأولى هي لقوانين الشريعة، والمرتبة الثانية هي لقوانين الطبيعة، مع أن قوانين الطبيعة هي لتسخير ما سخره الله

تعالى للناس، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1]، وقال: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾[2] ، وقال: ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ، وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ، وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾[3]، ثم قال مطمئنًا عباده بأن نعمه عليهم لا تنتهي أبداً لكثرتها: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾[4]وإذا اطمأن الناس فيما أنعم عليهم خالقهم اطمأنوا في معاشاتهم وفي عباداتهم.

فحتى يتم هذا التسخير للناس على أحسن ما يرام لا بد من اكتشاف هذه القوانين، وهذه العلاقات والنواميس التي خلقها الله

---

[1] – الجاثية.13.

[2] – الملك 15.

[3] – النحل 14-16.

[4] – النحل 18.

تعالى لضبط هذا الكون، ولتسخيره لمصالح الإنسان، كقانون السقوط الحر، وقوانين الطيران، وقوانين الطفو على الماء أو السوائل (دافعة أرخميدس)، وقوانين الدفع في السيارات والمحركات الإنفجارية وقوانين الزمن وقوانين التيار الكهربائي وقوانين الطاقة عامة... وما إلى ذلك من القوانين التي لا بدّ للإنسان من معرفتها ليتم له حسن تسخيره لهذا الكون فيسعد في الدنيا، ثم تكون هذه السعادة طريقا إلى سعادته في الآخرة، إذ حسن هذا التسخير هو طاعة لله تعالى وهو طريق إلى شكره عزّوجلّ والذي هو طريق إلى إسكان الطائع في الجنة يوم القيامة.

من يتولى اكتشاف القوانين الطبيعية:

وهذه القوانين لا يتم اكتشافها إلا بواسطة علماء أفذاذ كل في مجال تخصصه كابن الهيثم والخوارزمي وابن سينا وإسحاق نيوتن وألفريد أينشتاين وواتسون وأحمد زويل -العالم المصري- في هذه الأيام والذي اكتشف ما يسمى بالفوتون ثانية وهي جزء من بليون جزء من جزء من مليون جزء من الثانية، والذي أحدث به فتحا عظيما في عدة مجالات لحياة الناس اليوم.

- وهذه الإكتشافات لهذه القوانين تجعل الإنسان متلهفا وراءها، إذ كلما اكتشف قانونا فتح به بابا لحسن استغلال الكون لصالحه، ومنه يكون قد فتح بابا لسعادته في هذه الدنيا والتي هي طريق لسعادته في الآخرة، لأن سعادة الآخرة لا تتم إلا بسعادة الدنيا، وهذه الحقيقة تحتاج منا إلى برهان فهاكه:

سعادة الدنيا هي الطريق الوحيد إلى سعادة الآخرة:

نعم، سعادة الآخرة لا تكون إلا بسعادة الدنيا، وشقاوة الآخرة لا تكون إلا بشقاوة الدنيا، فمن يشقى في الدنيا فليس له في الآخرة إلا النار-والعياذ بالله- ودليل ذلك ما يلي:

- أن الله سبحانه وتعالى ما خلق الإنسان إلا ليسعده
- وان الله سبحانه وتعالى ما أنزل الشرائع إلا لتحقيق هذا المقصد وهو إسعاده في الدنيا والآخرة
- ولما كانت سعادة الدنيا متقدمة عن سعادة الآخرة من حيث الزمان، كانت سعادة الدنيا هي الطريق إلى سعادة الآخرة.
- فما هي السبل وما هي الطرق لتحقيق السعادة الدنيوية يا ترى؟ إن هذا السبيل هو الطاعات... طاعات العبد لربه، لأن الله تعالى لا يأمر بفعل شيء إلا لما فيه من المصالح، وما المصالح إلا الوسائل لإدخال السعادة في نفس المستصلح (بفتح اللام) بها،

كما لا ينهى الله تعالى عن شيء إلا لما فيه من المفاسد، وما الانتهاء عن المفاسد إلا طريق إلى السعادة في الدنيا، وما فعل المفاسد إلا طريق إلى الشقاوة والآلام في هذه الدنيا.

فكل مطيع لله تعالى إذن يكون غارقا في بحبوحة من أنواع من المصالح، بعيدا كل البعد عن أنواع من المفاسد، فهو إذن غارق في سعادة مستمرة ما دام غارقا في هذه المصالح.

- أما العاصي لله تعالى، التارك لأوامره والفاعل لنواهيه فإنه غارق في أضداد هذه المصالح، فهو غارق إذن في بركة من أنواع من المفاسد، وهذه المفاسد هي طريق الشقاوة والآلام في الدنيا، فالشقي في الدنيا إذن هو شقي في الآخرة لأن طريق العاصي لله تعالى هو إلى جهنم لا محالة -والعياذ بالله- إلا إذا عفا الله عليه وهو حر يفعل به ما يشاء.

- إذن كل من لا يسعد في هذه الدنيا فهو لا يسعد في الآخرة، أو كل من يعيش شقيا في هذه الدنيا فستتضاعف شقاوته في الآخرة -والعياذ بالله-

- وإذا كانت سعادة الآخرة لا تكون إلا بالطاعات في الدنيا، ولا سعادة في الدنيا إلا طاعة الله تعالى: استلزم أن سعادة الدنيا هي الطريق الوحيد إلى سعادة الآخرة.

ملاحظة: لما كانت أفعال الناس وأقوالهم ممزوجة بالمصالح والمفاسد وليست ممحضة بالصلاح أو بالفساد، ولما كانت الطاعات هي أفعال وأقوال: استلزم أن الأوامر والنواهي هي من الشارع تبارك وتعالى متجهة إلى المصلحة الممحضة الحاصلة من المصلحة والمفسدة الكائنتين في الفعل أو في القول المأمور به أو المنهي عنه، إذ كلما كانت المصلحة هي المحصلة من المصلحة والمفسدة هاتين: كان الأمر من الله تعالى متجها إلى فعله، أي أن الله تعالى آمر لعبده بفعله، والفاعل يكون طائعا لله تعالى.

وإذا كانت المحصلة هي المفسدة من المصلحة والمفسدة هاتين في الفعل أو القول: كان الأمر من الله تعالى متجها إلى تركه، أي أن الله تعالى آمر عبده بتركه، أي أنه ناهيا له عن فعله، والتارك للفعل هذا يكون طائعا لله تعالى... وهكذا شأن أوامر الله تعالى ونواهيه في الشريعة كلها[1] ، وهو المطلوب

- وأعود إلى الكلام عن أهمية القوانين الشرعية في حياة الناس وأقول: ليت شعري كيف لا يكون لعلماء الشريعة الإسلامية من التلهف إلى استكشاف قوانينها ومجالات تطبيقها مثل ما لعلماء الرياضيات وعلماء الطبيعة من التلهف في استكشاف قوانين هذه

---

[1]- الموافقات 2/ (26-30). المصدر السابق

العلوم ومجالات تطبيقها حتى تتم النعمة الكبرى على الإنسان في الدنيا وفي الآخرة؟ سعادته في الدنيا: بحسن استغلال تسخير الكون له بجلب مصالحه ودفع مفاسده، وبحسن طاعته لربه، وسعادته في الآخرة لأنه قد سعد في الدنيا ورضي الله تعالى عنه فيدخله جنته ويتم نعمته عليه بكشف وجهه الكريم عزّوجّل أمام مرآه.

من يتولى اكتشاف قوانين الشريعة الإسلامية:

إذا كانت القوانين الطبيعية لا يقترب منها إلا مثل من ذكرنا سابقا من العلماء الأفذاذ مع قلّة أهميتها بالنسبة لقوانين الشريعة كما ذكرنا سابقا كذلك، فمن باب أوْلى ألاّ يقترب من مجال القوانين الشرعية إلا علماؤها العظام.

وإذا كانت قوانين الطبيعة تتنوع بتنوع ما سخّره الله تعالى للإنسان: فإن قوانين الشريعة تتنوع بتنوع العلاقات الكائنة بين العبد وربه، وبين العبد ونفسه، وبين العبد وسائر المخلوقات من إنسان وحيوان وجماد وظواهر كونية.

فالعلاقة بين العبد وربه تربطها قوانين العقيدة كالإيمان بالله تعالى وبصفاته الكاملة، والإيمان بالملائكة، وبالكتب السماوية، وبالرسل، وباليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره، كما تربطها قوانين

العبادة كالصلاة والزكاة والصيام والحج و... كما وردت في الحديث المشهور، حديث جبريل عليه السلام والذي يرويه عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: يا محمد أخبرني عن الإسلام! فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم: "**الإسلام : أن تشهد أن لا إله إلاّ اللّه وأنّ محمدا رسول اللّه، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا**" قال: صدقت، قال: فعجبنا له يسأله ويصدقه! قال: فأخبرني عن الإيمان! قال: "**أن تؤمن باللّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره**"[1]

والعلاقة بين العبد وإخوانه تربطها قوانين المعاملات كقوانين البيع والشراء وقوانين الصلح والهبات والشركات و...، كما تربطها قوانين الأخلاق الفاضلة كالإحسان، والإيثار والتعاون...

والعلاقة بين العبد وسائر المخلوقات الأخرى تربطها قوانين حسن تسخيره لهذه المخلوقات كقوانين تبدّع وسائل العيش في

---

[1] - صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان حديث رقم1

– صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان والإسلام والإحسان حديث رقم50.

– سنن أبي داود كتاب السنة، باب في القدر حديث رقم 4695.

هذه الأرض ووسائل التمكين للإنسان فيها وكقوانين تحريم الإفساد في الأرض.

- هذه القوانين لا بد لها من حجج وبراهين يقوم باستكشافها العلماء المتخصصون في الشريعة الإسلامية، فهم العارفون بعقائدها وبمقاصدها وبأصولها وبفروعها، وهم العارفون بفقه الأولويات في عقائدها، وبفقه الأولويات في جلب المصالح فيما بينها، وبالأولويات في دفع المفاسد فيما بينها، وهم العارفون بفقه الأولويات في أصولها، وبفقه الأولويات في فروعها، أما باقي الناس غير المتخصصين في الشريعة الإسلامية: فعليهم احترام أنفسهم فلا يقتربوا منها لأن سوء اكتشافهم لها يؤدي إلى سوء القوانين الخاطئة منها وهذا يؤدي بالإنسان إلى الكوارث وإلى الدمار، فيدمر نفسه بنفسه، وهذا ينبغي أن يتأكد في حياة الناس أكثر من تأكيد استكشاف قوانين الطبيعة، لأن الخطأ في هذه الأخيرة دائما تكون مضرته أقل من مضرة الخطأ في قوانين الشريعة، فقد يخطئ صانع السيارة فيموت اثنان أو ثلاثة أو أربعة من الناس، وهذا هين بسيط أمام خطإ مكتشف قوانين الشريعة، إذ الخطأ فيه يؤدي إلى هلاك الآلاف، بل الملايين من الناس، بل يأتي على الأخضر واليابس فتحدث الكوارث المدمرة -والعياذ بالله- كما حدث في

الكثير من الفتن، والكثير من الحروب الأهلية نتيجة أخطاء فادحة في اكتشاف قوانين الشريعة، إذ تستباح فيها دماء الأبرياء وأموالهم وأعراضهم، ويذهب أمنهم وعيشهم أدراج الرياح، فيشقون بهذه القوانين بدل أن يسعدوا، ويهلكون بدل أن يعيشوا ويعمّروا، وتكون مهمة هذا المفتي المخطيء البائس عندها تخريب الدنيا بدل إعمارها- والعياذ بالله- وقد أمر الله ببنائها واعمارها بقوله: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[1] وليس بتخريبها وإذهاب ريحيها.

واقع اكتشاف قوانين الشريعة الإسلامية اليوم:

والواقع أننا نجد اليوم الكثير من الناس قد تجاوزوا حدودهم وأصبحوا يقحمون أنفسهم في مجال غير مجال تخصصهم ألا وهو مجال اكتشاف قوانين الشريعة، وهذا قلة تقدير منهم وقلة وعي وقلة ورع، ومن باب إلقاء النفس مع الغير إلى التهلكة، والسكوت عنهم هو من باب ترك الحبل على الغارب تجاههم، بل كان لا بد من إيقافهم عند حدودهم فيمنعون بالوعظ والإرشاد وإلا فبالقوة والقهر، وكان الأجدر بهؤلاء الناس أن يقحموا

---

[1] هود 61.

أنفسهم في القوانين الطبيعية لأن الخطأ فيها أقل ضررا من الخطإ في قوانين الشريعة، بل الأجدر بهم ألا يقتربوا إلا لما ينفع أنفسهم والناس.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى وجدنا سذاجة كبيرة عند باقي الناس الذين يستفتون غير المتخصصين في فتاويهم، وهذه السذاجة ناشئة من قبولها منهم وهم غير متخصصين، ولو استفتى مريض شخصا آخر غير طبيب فأعطاه وصفة طبية لرمى بها إلى سلة المهملات وقال: لا آخذ بها لأن المفتي هذا ليس بطبيب وليس أهلا لوصف هذا الدواء، بل ليس أهلا لأن يُشخِّص الداء، فكيف بوصفه للدواء؟! وليت شعري كيف يفعل بهذه الوصفة هكذا ولا يفعل بفتوى غير المتخصص في الشريعة الإسلامية هكذا؟ !! ولا يفعل بفتوى المتجرئين على الفتوى وهم ليسوا أهلا لها هكذا ؟ !! ... إنها الغفلة وقلة العقل والتعقّل.

عظمة الاشتغال بقوانين الشريعة:

ومما تقدم ينبغي أن نعلم أن الإشتغال بالإجتهاد لاكتشاف قوانين الشريعة هو أعظم من الإشتغال بالإجتهاد في استخراج قوانين الطبيعة، وإن كانت هذه الأخيرة لا بد منها لحسن استقامة

حياة الناس أينما وجدوا، فكلاهما لا يستطيع الإنسان أن يستغني عنهما، إذ التفريط في الأولى يؤدي إلى تهارج وتمارج حياة الناس في الدنيا، والتفريط في الثانية يؤدي إلى سوء استغلال ما سخره الله للإنسان من هذا الكون، مما يؤدي به إلى ضيق العيش وضنكه مما يؤدي إلى عدم حسن عبادة الله تعالى أحسن عبادة، فكلاهما إذن أساسي في حياة الناس، والتفريط في أيهما: يؤدي بالإنسان إلى سوء العاقبة في الدنيا ومنه إلى سوء العاقبة في الآخرة، إلا أن التفريط في الأولى -وهي قوانين الشريعة- فيه من الإسراع إلى هذا السوء في العاقبة ما فيه، ولهذا وجب على الإنسان أن يسارع إلى تحسين شرائعه التي هي أساس تمدنه وتحضره قبل الإسراع إلى قوانين الطبيعة البانية لهذه المدنيات وهذه الحضارات.

وإن كان الأمر اليوم معكوسا من حيث أولويات اهتمام الناس: و ذلك لاستخفافهم بأمور شريعتهم وأمور تنظيم مدنياتهم وحضاراتهم مع أنها أعظم ما توصل إليه الإنسان إلى اليوم، وسيبقى كذلك إلى يوم القيامة كما ذكر الشيخ الطاهر بن عاشور في كتابه مقاصد الشريعة الإسلامية: (ومن أعظم ما اشتمل عليه خلق الإنسان: خلق قبوله التمدن الذي أعظمه: وضع الشرائع له،

وما أرسل الله تعالى الرسل وأنزل الشرائع إلا لإقامة نظام البشر)[1] مستدلا على هذا الكلام بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾[2] الذي يفيد بأن كل الشرائع السموية قد أنزلها الله تعالى لإسعاد البشر بتنظيم مدنياتهم وحضاراتهم، لأنه قد خلقهم ميالين إلى التمدن والتحضر والعيش الرغيد، ولا يستقيم حالهم فيها إلا إذا أقاموا العدل فيها كما قال تعالى في هذه الآية: ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ أي بالعدل، إذ هو أساس كل تمدن وكل تحضر، فكل الشرائع إذن جاءت لما فيه صلاح البشر في العاجل والآجل، أي في حاضر الأمور وفي عواقبها، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾[3]

1 – مقاصد الشريعة الإسلامية للشيخ الطاهر بن عاشور ص 13.ط المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.

[2] ـ الحديد 25

[3] – الشورى 13.

وقال: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾[1]، وقال: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾[2].

وقال: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾[3].

وإذا كان هذا هو حال الشرائع السماوية كلها بما فيها الإسلام، وإذا كان الإسلام هو آخر الأديان السماوية: علمنا أنه هو أعظم الأديان وأقومها وأدومها على الإطلاق، قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾[4] بصيغة الحصر الدالة على المبالغة، وقال: ﴿وَمَا

[1] -المائدة 48

[2] - المائدة 44.

[3] - المائدة 46.

[4] - آل عمران 19.

أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾[1]، فإذ قد علمنا بأن الله تعالى قد وصف الكتب المنزّلة قبل الإسلام بالهدى والنور، وأنه قد جعل القرآن مصدقا لها وشاهدا ومهيمنا عليها لقوله: ﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه﴾[2]: علمنا أن القرآن الكريم هو أفضل الكتب السماوية وأقومها وأدومها على الإطلاق، فهو شاهد على ما في التوراة والإنجيل، ومصدق لما لم ينسخه الله منها، ومهيمن عليها لما نسخه الله منها، ولما وضعه الله فيه من أصول وفروع ولم تكن في التوراة والإنجيل، فلما كانت التوراة هدى ونور كما قال الله تعالى: ﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور﴾[3]: كان القرآن أهدى وأنور، لأنه مصدق لها ومهيمن عليها، ولما كان الإنجيل هدى ونور كما قال تعالى: ﴿وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور﴾[4]: كان القرآن أهدى وأنور، لأنه مصدق له ومهيمن عليه، إذ المصدق والمهيمن يكون في الهداية أهدى وفي النور أنور.

1 - الأنبياء 107.

2 - المائدة 48.

3 - المائدة، 44.

4 - المائدة 46.

ولما كان القرآن الكريم هو آخر كتاب أنزله الله تعالى لعباده: كان هو أقومها وأهداها وأدومها على الإطلاق إلى يوم الدين، فهو كتاب الدين الكامل الذي أهله الله تعالى لأن يكون صالحا في كل زمان وفي كل مكان، ولأن يبقى ويدوم ويكمّل تنظيم حياة الناس أينما وجدوا، فشريعته هذه هي الوحيدة اليوم المؤهلة لتنظيم حياة البشر في مدنياتهم وحضاراتهم، في أريافهم وفي مدائنهم، وفي كل شبر على أي بقعة وجد عليها الإنسان، وستبقى كذلك إلى يوم القيامة.

ولما كان الإنسان دائما يأخذ بالأكمل فالأكمل: وجب عليه أن يأخذ بالتشريع الأكمل فالأكمل، ولا يجد أمامه من الشرائع بهذا الوصف إلا تشريع الإسلام، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [1] حيث قصره على هذا الدين ولم يترك له حرية اختيار غيره لما فيه من الهيمنة على الكتب السابقة ولما فيه من التصديق لها، وقال: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾[2]، وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾[3]

---

[1] – آل عمران 85.

[2] – الإسراء 105، الفرقان 56.

[3] - سبا 28

وقال عليه الصلاة والسلام (**أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لنا الأرض مسجدا وطهورا فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة**) [1]، والشاهد من النص قوله: (وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة و بعثت إلى الناس عامة) حيث استلزم قصر الناس على ترك دياناقم المختلفة والأخذ بالدين الإسلامي...

حقيقة فإن أعظم ما توصل إليه الإنسان هو هذه القوانين التي تنظم حياته، فتنظم علاقته بربه من العقائد والعبادات، وبنفسه من العادات، وبإخوانه من المعاملات، وبما يحيط به من باقي المخلوقات:

إذ لو تصورنا أن قوانين العقيدة قد تكسرت لأدى هذا إلى انتفاء هذه العقيدة الصحيحة، ولانتفى الإلتزام بانتفاء الإله الذي يأمر فيطاع، ولانتفى الحساب ثم الثواب والعقاب، ولعم الدمار

---

[1]- صحيح البخاري، كتاب التيمم حديث رقم 335

صحيح مسلم،كتاب المساجد، حديث رقم52

والخراب نتيجة الفوضى العارمة وعدم ضبط حقوق الناس وواجباتهم وحقوق المخلوقات الأخرى.

وهذه النتيجة حاصلة كذلك من انعدام القوانين التي تربط العبد بنفسه إذ تسود العادات المفسدة العائدة عليه بالمضار والدمار، فلا يستطيع المحافظة على نفسه.

ونفس النتيجة السابق ذكرها عند انتفاء الحساب ثم الثواب والعقاب بانعدام العقائد والعبادات، حاصلة مع انعدام القوانين التي تربط العبد بإخوانه، ومن انعدام القوانين التي تربط العبد بباقي المخلوقات، إذ الأولى حاصلة بعدم انضباط حقوق الناس وواجباتهم فيما ينهم، والثانية حاصلة من سوء استغلال ما سخر الله له أو انعدامه، وهذا يجعل الإنسان لا يستمر وجوده على هذه الأرض، لأنه لا بقاء له بدون تسخيره لهذه المخلوقات، وبدون الإنتفاع بها في حياته، إذ وجوده مرتبط بوجودها أَوَّلاً، ثم باستغلاله إياها ثانيا، وسوء استغلاله إياها يؤدي إلى انعدامها ثم انعدامه معها.

وأحسن مثال على سوء استغلال ما سخره الله للناس: الخرام وثقب طبقة الأزون في الجو الذي يهدد الوجود الإنساني على الأرض، إذ الحياة ستتلاشى عليها بدون هذه الطبقة من الأوزون

كما يقرر علماء الطبيعة والمحافظة على البيئة، وما حدث هذا إلا بسوء استغلال أنواع من المواد الكيماوية المنبعثة إلى الجو بكميات كبيرة، إذ جاءت على هذه الطبقة فأحدثت فيها خللا كبيرا يتمثل في ثقب هائل تتسرب منه أنواع الأشعة الشمسية الضارة إلى الأرض، ولهذا وجدنا علماء المحافظة على البيئة يصرخون اليوم بأعلى أصواتهم، أن حافظوا على هذه الطبقة لأن في زوالها زوال العيش على هذه الأرض.

ولو أتبع الإنسان أحسن استغلال لموارد الطبيعة، والتزم بإدارة ما خلق الله له أحسن التزام: ما حدث هذا ولا حدث غيره. ونسأل الله تعالى العافية.

قائمة المصادر والمراجع

1- الموافقات في أصول الشريعة لأبي إسحاق الشاطبي، ط/ دار المعرفة، بيروت، لبنان.

2- مقاصد الشريعة الإسلامية لمحمد الطاهر ابن عاشور، ط/ المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.

3- مقاصد الشريعة الإسلامية لعلال الفاسي، ط/ دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان.

4- نظرية المقاصد عند الشاطبي لأحمد الريسوني، ط1/ المعهد العالي للفكر الإسلامي، توزيع المكتبة السلفية، الدار البيضاء، المملكة المغربية.

5- الحب بين العبد والرب لأحمد نصيب الحاميد، ط1/ دار الفكر، دمشق سوريا، 1980م.

6- منهاج الصالحين لعز الدين بليق، ط/ دار الفتح، بيروت، لبنان.

7- الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر لمحمد البهي، ط/ الدار القومية للطباعة والنشر، مصر.

8- الفكر الإسلامي في الرد على النصارى لعبد المجيد الشرفي، ط/ المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986م.

9- المعونة على مذهب عالم المدينة للقاضي عبد الوهاب المالكي، ط/ دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

10- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن لمحمد فؤاد عبد الباقي، ط/ دار الحديث، القاهرة، مصر.

11- شرح التلقين للمازري، ط/ دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان.

12- الإشراف على نكت مسائل الخلاف للقاضي عبد الوهاب، ط/ دار ابن حزم، بـــيروت، لبنـــان، 1999.

13- الموطأ للإمام مالك برواية يحي بن يحي الليثي، ط/ دار النفائس، بيروت، لبنان، 1980.

14- صحيح البخاري، ط/ عالم الكتب، بيروت، لبنان، 1982.

15- المعلم بفوائد مسلم للمازري، ط/ المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.

16- الذخيرة للقرافي، ط/ دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1994.

17- قواعد الفقه الإسلامي من خلال الإشراف على نكت مسائل الخلاف لمحمد الروكي، ط/ دار القلم، دمشق، سوريا، 1998م.

18- المنتقى للباجي، ط/ دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

19- أصول الفتيا في الفقه المالكي للخشني، ط/ الدار العربية للكتاب، تونس، 1985.

20- الصحاح للرازي، ط3/ دار الحداثة، بيروت، لبنان، 1983م

21- صحيح مسلم، ط/ إحياء الترا ث العربي، 1979، بيروت، لبنان.

22- كتاب القواعد لتقي الدين الحصني، ط/ مكتبة الرشد، الرياض، المملكة العربية السعودية، 1997م.

23-المنقذ من الضلال لأبي حامد الغزالي، ط/ المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م.

24 - مقاصد الشريعة الإسلامية وعلاقتها بالأدلة الشرعية لمحمد سعد اليوبي، ط/ دار الهجرة، الرياض، المملكة العربية السعودية، 1998.

25- فقه العبادات وأدلته على مذهب السادة المالكية للدكتور أحسن زقّور، ط/ دار ابن حزم بيروت لبنان، 2004.

26- المقدمة القرطبية بشرح الشيخ أحمد زروق، تحقيق الدكتور أحسن زقّور، ط/ دار ابن حزم بيروت لبنان، 2004.

27- القواعد الفقهية المستنبطة من المدونة الكبرى للدكتور أحسن زقّور، ط/ دار ابن حزم بيروت لبنان، 2004.

فهرس الآيات

الآيات	السورة	رقم الآية	الصفحة
كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً ...	البقرة	28	19
إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ	البقرة	164	17
تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ ...	البقرة	111	13
إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ	آل عمران	19	49
وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا ...	أل عمران	85	51
كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ	آل عمران	110	25
يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُم بُرْهَانٌ ...	النساء	174	15
الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ...	المائدة	3	16

إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ...	المائدة	44	49
وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعَيسَى ...	المائدة	46	49
لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً ...	المائدة	48	49
وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ...	المائدة	48	50
سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ ...	الأنعام	148-149	14
قُلْ فَلِلّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ	الأنعام	149	34
وَجَاء السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالْواْ ...	الأعراف	113-126	29
قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ ...	الأعراف	32	24
كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ ...	هود	1	13
هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ ...	هود	61	20، 45
إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ	الحجر	9	12
وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ ...	النحل	14-16	37
وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا	النحل	18	37
وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا	الإسراء	105	51

	الفرقان		
لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا	الأنبياء	22	18
بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ ...	الأنبياء	18	15
أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ ...	الأنبياء	24	13
أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا ...	الأنبياء	33-30	17
وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ	الأنبياء	107	50
أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ	النمل	64	17
أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ...	النمل	64	13
فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا ...	القصص	50-48	14
وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا ...	القصص	75	13
وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ ...	سبأ	28	51
أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ ...	فاطر	28-27	9
إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءِ	فاطر	28	9
اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ...	غافر	64	18
لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ	الشورى	11	18

شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ ...	الشورى	13	48
وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ ...	الجاثية	13	24، 37
وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُون	الذاريات	56	20
لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا ...	الحديد	25	48
رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا	الممتحنة	5	31
هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ...	الملك	15	37
قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُود...	البروج	4-9	30
أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ ...	الغاشية	17-20	17

فهرسة الأحاديث النبوية

الحديث	الصفحة
أن تؤمن بالله وملائكته و كتبه ورسله ...	43،11
إن الله عز وجل يبعث لهذه الأمة على رأس كل ...	24
أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي...	52
الإسلام : أن تشهد أنه لا إله إلاّ اللّه وأنّ محمدا ...	43
صبرا آل ياسر فإن موعدكم الجنة	30

المحتويات

المحتويات	الصفحة
مقدمة	5
ضعف الإنسان أمام قوة الحقائق	6
مكانة حقائق الشريعة الإسلامية	12
حفظ القرآن الكريم في الصدور وغير الصدور	12
حفظها بوضعها مبنية على حقائق قوية وبراهين وحجج متينة قوية	13
شمول قوة الحقيقة والبرهان في كل الشريعة الإسلامية	16
أهمية حفظ الشريعة الإسلامية بالحجج القوية الدامغة	22
عرض الحقائق الشرعية على الناس	27
حسن عرض الحقائق الشرعية على الناس	31
عدم إمكان إبطال الشريعة الإسلامية بإبطال حقائقها	32
عرض وعبرة	34
نظرة وآمال	35
أهمية القوانين الشرعية في حياة الناس من القوانين الطبيعية	36

من يتولى اكتشاف القوانين الطبيعية	38
سعادة الدنيا هي الطريق الوحيد إلى سعادة الآخرة	39
من يتولى اكتشاف قوانين الشريعة الإسلامية	42
واقع اكتشاف قوانين الشريعة الإسلامية اليوم	45
عظمة الاشتغال بقوانين الشريعة	46